كتاب سوانح قلبية

لسيدي الشيخ أحمد فتح الله الجامي حفظه الله

موقع الطريقة الشاذلية الدرقاوية

بسم الله الرحمن الرحيم

ــ مقدّمة ــ

الحمد لله ربِّ العالمين ، الذي منَّ علينا بهذا الدّين القويم ، وجعلنا من أتباع سيّد المرسلين ، ودلّنا على وارث من ورّاث نبيّه الصّادقين . فله الحمد وله الفضل وله المِنّة وله الثناء الحسن الجميل .

والصّلاة والسّلام على هادي الأنام ، ومنقذ البشريّة من الظّلام ، سيّدِنا وحبيبِنا وقدوتِنا محمّدٍ دليلِنا إلى دار السّلام ، وعلى آله وأصحابه الأعلام ، رضي الله تعالى عنهم وعمَّن تبعهم بإحسان .

وبعد : يقول الله تعالى في مُحْكَم آياته : { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا } [النحل /١٨]. فمِن أجلّ النّعم وأعظمها ــ بعد نعمة الإيمان والإسلام ــ نعمةُ السّلوك في الطّريق الموصل إلى التّحقيق في بلوغ المرام من مقام الإحسان ، على يد مَن جعلهم الله ورّاثاً لأنبيائه في دلالة الخلق عليه ، ومشاعلَ نور تضيء درب السّالكين إليه .

أحمدك اللهم حمدَ الحامدين ، وأشكرك شكر الشّاكرين ، أنْ عَرَّفتنا على عَلَمٍ فردٍ من هؤلاء الأعلام ، عزَّ أمثاله ، وقلَّ أن يوجد أشباهه ، وخاصّة في هذا الزّمان ؛ألا وهو شيخي وقرَّة عيني وحبيب قلبي سيّدي أحمد فتحُ الله جامي ، خادم الطّريقة الشّاذليّة القادريّة ،

الدّالُّ على الله تعالى بحاله قبل قاله ، والموجّه إلى التّمسّك بشرع الله تعالى وسنّة نبيِّه المصطفى عليه الصّلاة والسّلام بفعله قبلوعظه ، الخليفةُ الأوحدُ لسيّدي الشّيخ عبد القادر عيسى رحمه الله ، وطيَّب ثراه ، وجَعَلَ في أعالي الجِنان مثواه ، وجزاه عنّا وعن المسلمين كلَّ خير ؛ فإنّه ــ رحمه الله ــ لصدق أمانته أبى أن يَترك على رأس هذه الطّريقة المباركة إلاّ رجلاً بل جبلاً شامخاً يتابع بعده المشوار ، و يأخذ بيد السّالكين ويسير بهم في مدارج الكمال على درب التّوحيد الخالص والمعرفة الحقّة والعبوديّة الصّادقة . فجزاه الله عنّا خير ما جزى شيخاً عن مريديه .

بعد هذا أيُّها القارئ الكـــريم : أظنّ أنّـــك تعذرني إن لم أُوفِّهِ حقَّه ، ولم أُعْطِهِ قَدْره . فأنّى لمثلي أن يتحـــدّث عن مثله ، وأين الثّرى من الثّريّـــا .

ولِما عرفْتُ منه ــ حفظه الله ــ مِن كُرهِهِ للمدح وبُغضِهِ للثناء ، فإنّي لن أتحدّث عن شخصيّته العظيمة ، وصفاته النّبيلة ، ومزاياه الكريمـــة ، ومقاماته الرّفيعة ، لكنّـــني سأتحدّث عن آثاره الملموسة وعطاءاته المحسوسة .

فإنّني ــ واللهِ ــ مُذْ رأيتُهُ لأوّل وهلة أخذ لُبّي وسبى عقلي ، وملَكَ روحي ، قبل أن أسمع منه كلاماً ، أو يوجِّهَ إليَّ خطاباً . فعرفتُ فيه سرَّ الوراثة النَّبويِّة الكاملة ، فلَمْ أعُدْ أُطيقُ البعد عنه ، فلازمتُه ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً ، فإذا بصحبته تغذّي الأرواح ، وبنظراته تمزّق حُجُبَ النّفوس ، وبكلامه يدغدغ القلوب . وهذا من ميزات الطّريقة

الشّاذليّة المباركة وتأثيـــرها في أتبـــاعها عن طريق شيوخهم بالتّسلسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولستُ وحدي في هذا الشّعور ، بل هذا شعور كلِّ مَن صاحَبَه وجالَسَه وسمع كلامه ، إلاّ مَن حُجِبَ بحجاب النّفس ، أو تمسّك باتّباع الهوى . نسألُ اللهَ تعالى لنا ولهم الهداية والسّداد .

وممّا منَّ الله تعالى به عليَّ أن شرَّفني بصحبته ـــ حفظه الله ـــ في أيّام ولياليَ الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان لسنين عديدة ، وكنت أكتب عنه جواهر كلامه الذي يُفيضُ الله به على قلبه الشّريف ، من نفحات تلك الأوقات المباركة ، حيث كانت تتدفّق أحياناً كالشّلاّل الذي لا يملك هو أن يوقِفَهُ ، ولا يستطيع تكراره إذا ما طُلِبَ منه ذلك ، لأنّه ما خرج من عُصارة عقل ، ولا من إعمالِ فِكر ، ولا من استرجاع حافِظةٍ ، ولكنَّه فيضٌ من العلوم اللّدنّيّة والتّوجيهات الربّانيّة التي أكرمه الله تعالى بها ، وهذا من لوازم الطّريقة الشّاذليّة المباركة . فكانت هذه الوصايا والحِكَمُ مليئة بتوجيه القلوب إلى الله عزَّ وجلّ ، والحثِّ على التّمسّك بالشّريعة ظاهراً وباطناً ، واتّباع رسول الله صلى الله عليه وسلم سرًّاً وعلناً ، والتّخلّي عن الأخلاق الذّميمة ، والتّحلّي بالأخلاق الحميدة ، وتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الطّريق والتّصوّف والمرشد ، وما يحيط بذلك من أوهامٍ ومفاهيمَ مغلوطةٍ وبدعٍ مذمومةٍ ، انتشرت بين مَن تمسّكوا بقشور الطّريق وتركوا لُبَّه وحقيقته ، فكانوا سبباً

لإعراض الكثيرين عن التزام طريق الحقّ ، والتّمسّك بأهل الصِّدق . وكان أثر هذه الوصايا كبيراً ، وفعْلُها بيِّناً في كلِّ مَن سمعها بعد ذلك أو قرأها .

من هنا جاءت فِكرة جمعها في كتاب ، لعلَّ نفعَها يكون أعمَّ وأثرَها يكون أشمل.

فجُمِعَتْ ثمّ أُضيفَ عليها في نهاية الكتاب نخبةٌ من الوصايا الرّبّانيّة الّتي ساقها الله تعالى على لسانه ــ حفظه الله تعالى ــ في مناسبات متفرّقة ولقاءاتٍ مختلفة غير الاعتكاف .

وقد ارتأى ــ حفظه الله ــ أن يكون هذا الكتاب بعنوان : ((سوانح قلبيّة)) ؛ أيْ : معانٍ عَرَضَتْ للقلب بفضل الله سبحانه وتعالى دون طلبٍ منه ، إكراماً للحاضرين ، وإجابةً للسّائلين ، ورزقاً للمحتاجين .

فممَّا يُميِّز هذه الوصايا والحِكَم ــ وهذا سِرُّ فاعليَّتِها ــ أنَّه ــ حفظه الله ــ ما نقَلها من كتاب ، ولا تعلَّمها من معلِّم ، ولا هيّأها وجهَّزها مُسبقاً ، ولا حضَّرها من مراجع ، وإنَّما انسابت على لسانه الطّاهر من قلبه العامر بمدد إلهيٍّ باهر ، رزقاً للسّامعين ، وهدىً للسّائلين .

ففي اعتكاف عام ألفٍ وأربعمائة وواحد وعشرين للهجرة ، قبل العيد بيومين ، نظر ــ حفظه الله ــ إلى دفاترنا الّتي كادت تمتلئ من كتابة وصاياه ، فقال : قبل أن تأتوا بيوم أو يومين تفكَّرت بيني وبين الله ، قلت : يا ربّ ! غداً يأتي الأحباب للاعتكاف ، ماذا أقول لهم ؟ تفكّرت . . . تفكّرت . . . واللهِ ما وَجدْتُ ولا كلمة ، ووجدْتُ نفسي فقيراً . انظروا

الآن كمْ كتبتم ، واللهِ هذا ليس منّي ، هذا رزقكم أتاكم من ربِّكم ، فهو معنا ، كلَّما سألتم يأتي الجواب منه تعالى ، لأنّه يعرف ضعفنا ويعرف احتياجنا .

فاللهَ العظيم أسأل ، وبجاه نبيِّه الكريم أتوسَّل أن يَمُدَّ في عُمُر شيخنا مع كمال الصحّة والعافية ودوام التَّرقِّي ، وأن ينفعنا به وبوصاياه ، وينفع بها أهلَ الطّريق وعامّةَ المسلمين ، وأن يجزيَه عنّا خير الجزاء ، فإنّا عاجزون عن شكره .

وصلّى الله تعالى على سيِّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم

ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليِّ العظيم

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات

كتبه العبد الفقير إلى الله تعالى

بشير فرح

الأربعاء / ٧ / شـــعـــبان / ١٤٢٢ هـــ

الموافق / ٢٤ / تشرين الأوّل / ٢٠٠١ م

من

وصايا اعتكاف

عام ١٤١٤ هجري

بسم الله الرحمن الرحيم

١) الذي يريد رضا الله عليه أن يطّبق على نفسه الشّرع الشّريف والسنّة السنيّة وأن يتحلّى بالصّدق ، ومَن لم يجد ذلك من نفسه فليستغفر وليرجع إلى الله . هذا ظاهراً ؛ وأمّا باطناً فعليه أن يتمسّك بأخلاق الرّسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، ويهتمّ بأن يكون قلبه مع الله عزّ وجلّ ؛ فإذا كان قلبه مع الله لا بدّ أن يكون من المتوكّلين . والتّوكّل هو الاعتمادُ على الله والسّكونُ وعدمُ الاضطراب ، لتعلّق القلب بالله تعالى . وعليه أن يتحلّى بجميع الصّفات المحمودة ؛ من الصّبر وتحمّل الأذى والرّضا بالقضاء والوفاء بالعهد وصلة الرّحم ودفع السّيئة بالحسنة والإنفاق مما رزقه الله سرّاً وعلانية . . . إلى غير ذلك . وعليه أن يقعد على باب قلبه ، فكلّما شَرَدَ قلبُه أو انحرف عن الاستقامة حوّله إلى خالقه وبارئه ، وبهذه الصّفات يكون مع الله في الدّنيا . وإذا خافت نفسه من الموت فلْيقلْ لها : أنا مع الله في الدّنيا ومعه في الآخرة وهو يفعل بي ما يشاء وهو الغفور الرّحيم جلّ وعلا .

بهذه الصّفات يكون العبد ظاهراً بشراً وباطناً ملَكاً ، ويكون ممن قال الله تعالى فيهم :{ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ } [البينة / ٧] .

محبّة الموت أو الخوف منه ميزان للمؤمن ، فمن كرهت نفسه الموت ليس بصادق ، لأن مَن أحبّ الله يحبّ أن يذهب إليه .

٢) لو ننظر في الطّبيعة البشريّة نراها ناقصة ، فالإنسان محتاج إلى مربٍّ ، والمربّي هو ربُّ العالمين ، ولكن لا بدّ من الواسطة ؛ والوسطاء هم الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام ، ثمّ آخرهم الرّسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، ثمّ أتى بعد الرّسل الورّاث من العلماء العاملين .

لذلك عندما قال الله تعالى لسيّدنا موسى وأخيه هارون عليهما الصلاة والسلام : { اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَو يَخْشَى (٤٤) قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَو أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } [طه/ ٤٣ - ٤٦] .

الخوف هنا مظهر نقص الطبيعة البشريّة التي تحتاج إلى تربية ؛ ربُّهم يكلّمهم : { اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ } وهما يقولان : { إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَو أَنْ يَطْغَى } . إذن ! هذه الطّبيعة البشريّة تحتاج إلى تربية ، فقال تعالى مربّياً لهما : { لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } . وكذلك بالنّسبة للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم فقد ربّاه ربّه فقال له : { وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ } [الأنعام / ٥٢] ، وقال : { عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَو يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُو يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ } [عبس / ١ - ١١] . إذن لا بدّ من التّربية . فإذا كانت للرّسل الكرام فمن باب أولى لِمَن بعدهم .

فالطّبيعة البشريّة تحتاج إلى تربية ، ولكن عقل البشر لضعفه وجهالته لا يفهم لِمَ يتّبع النّاس شخصاً أو مربّياً . والجواب : لأنّه يربّيهم ولا يداهن في الدّين ، وهو على الصّراط المستقيم والشّريعة والطّريقة والحقيقة . ومَن لم يربَّ على يد مربٍّ ولم يذهب ولم يرجع لا يمكن أن يربّي غيره .

٣) الله أنزل القرآن ليعمل المؤمنون به حتّى يتخلّصوا من نار جهنّم وعذابها ، وقد قال الله تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر / ٩] . وكما أن القرآن محفوظ بالله ، ومعصوميّة الأنبياء أيضاً بالله ، كذلك أهل القرآن إذا قاموا بحقوقه ؛ باجتناب نواهيه وتطبيق أحكامه يكونون محفوظين بحفظ الله ، فمحفوظيّة القرآن الكريم بالله تعالى وليست بأحد سواه ، وهو محفوظ حكماً ولفظاً ومعنىً ، وكذلك مَن اتّبع القرآن الكريم أمراً ونهياً يكون محفوظاً بحفظ الله . فكما أن الله تعالى يحفظ القرآن من التّغيير في اللفظ والمعنى ، كذلك يحفظ أهل القرآن الذين يقرؤونه ويعملون عملاً موافقاً لأوامره ونواهيه . اللهم اجعلنا من أهل القرآن . وهو على كلّ شيء وكيل ، وهو يقوم بالوكالة التّامّة بدون نقصان .

والحفظ هو الإعانة على عدم الوقوع في المعاصي ، والتوفيق لتحقيق رضا الله تعالى ، وليس المقصود بالحفظ عدم الابتلاء ؛ فإنّ الرّسول الأعظم صلى الله عليه وسلم كان معصوماً ومحفوظاً وكان ابتلاؤه عظيماً .

٤) إذا تعلّقتَ بالخلق انشغلتَ بهم ، وإذا انشغلتَ بالخلق نسيتَ نفسك ، وإذا نسيتَ نفسك نسيتَ ربّك ، فعلّقْ قلبك بالله واترك الخلق وكلامَهم . وكنْ شاذليّاً بكثرة الذّكر مع الحضور مع الله ؛ فإذا كنت حاضراً مع الله فأنت ذاكر .

وكن أيضاً غزاليّاً في المجاهدة للنّفس ، وذلك بتقليل الأكل والشّرب والنّوم والشّهوة والاكتفاء بقدر الاحتياج والضّرورة .

وإذا خالطت النّاس ووافقتهم فإنّهم يضيّعون دينك ، إذن ! عليك أن لا توافقهم بل تكون موافقاً لله ولرسوله ولكتابه ، وبذلك ينقدون عليك ، فيجب عليك أن تتحمّل وتصبر حفاظاً على الدّين .

٥) أبواب رحمة الله مفتوحة ، والإنسان هو الذي يغلق على ذاته هذه الأبواب ، وذلك إذا وضع نفسه أمامه فتكون حجاباً له عن رحمة الله ؛ حيث إنّ أئمّة الكفر هي النّفوس المتمرّدة ، كما أنّ أئمّة الإيمان هما القلب والرّوح . فمَن تمسّك بالنّفس يفتح باب الكفر ، ومَن تمسّك بالقلب والرّوح يفتح باب الإيمان . ويمكن أن تستولي أئمّة الإيمان على أئمّة الكفر (القلب على النّفس) وذلك بتطبيق الشّريعة ، وتربية النّفس بالطّريقة ، أمّا إذا استولت النّفس على القلب كانت النّفس الخبيثة هي الغالبة .

٦) القلب قلبان : قلب حيواني صنوبري وقلب ربّاني من عالَم الملكوت ، وعلى هذا القلب لفظ الجلالة (الله) .

والنّفس نفسان : نفس ربّانيّة ونفس حيوانيّة ، والرّوح كذلك . وكلٌّ منهما متعلّق بالآخر ، أي هناك تعلّق للقلب الربّاني بالقلب الحيواني . وهذا التعلّق غامض لا يُعْلَم ، ولكن يمكن تصويره كاستيلاء السلطان على المملكة ، أو كتعلّق المغناطيس بالحديد ؛ فإذا قُرِّب المغناطيس من الحديد فإنه قبل أن يصل إليه يجرّه بدون أن نرى بينهما علاقة . ولكن صاحب هذا القلب يعرف تعلّق القلبين ببعضهما ويشعر به . وإذا غلب القلب الرّباني على الحيواني فإنّه قبل أن يلتصق به يحرّكه ، لأنّه سلطانه . وأحياناً يُحَسُّ بوجع في القلب الحيواني وذلك من إزالة الوسخ الحاصل من الذّنوب .

٧) الله أرحم بعباده من والديهم ، وعلمُه محيط بجميع الأمور وعواقبها ، يعطي الإنسان من الفيوضات الإلهيّة والتّجلّيات الجلالية والجماليّة بقدر قوّة تحمّله ؛ لأنه إذا أعطاه فوق طاقته لا يتحمّل . ومع ذلك فالعبد يطلب ، لأنه لا يشبع من رحمة الله جلّ وعلا ، و هو يطمع أن يزيده .

ولكن كما قال تعالى : { وَلَو بَسَطَ اللّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ } [الشورى / ٢٧] ، والرزق المعنوي مثل الرزق المادي . مثلاً : المصباح الكهربائي الذي تحمُّله ٢٢٠ فولت إذا أُعطيَ ٤٤٠ فولت يُحرق في آنه ، يزداد ضوءه ثانية أو ثانيتين ثمّ يُحرق . فعلى العبد الضّعيف أن لا يطلب شيئاً لا في الحال ولا في الاستقبال ، ويرضى بما قسم له جلّ وعلا ، لئلاّ يتجاوز حدَّ الأدب ؛ لأنّ علم العبد منحصر لا يحتوي عواقب الأمور ، ولكن علم الله جلّ وعلا يحيط بكلّ شيء .

٨) الاستغفار والتّوبة هما ميراث المؤمن من أبيه آدم ، فلا بدّ أن يأخذ ميراث أبيه ، لأنّ الإنسان من وصفه الضّعف والتّقصير . وما رأيت أحداً تمسّك بنفسه إلاّ وتراجع ولم يتقدّم . وإذا خرجت نفسك من بينك وبين الله لم يبق إلاّ ربّك ، والنّفس لا تخرج بالكليّة عن أمّاريَّتها بل تضعف ، حتّى ولو كانت مطمئنّة لا تخرج عن خباثتها ، بل جوهرة الإيمان تقوى عليها . فالروح الربّانيّة إذا أخذت غذاءها فإن نور الإيمان يسلّط على النّفس ويُضعفها . ونور الإيمان يقوى بالطّاعة ؛ وهذا هو السبب أمّا المسبب فهو الله تعالى . والمؤمن الصّادق يأخذ من الدنيا بقدر الحاجة من الأكل والشرب والشهوة وحتّى من العمل .

٩) على السّالك أن لا يفتح باب الجدل بينه وبين النّفس والشّيطان ، بل يسدّ عليهما أبواب المجادلة . قال الله تعالى : { وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ هُو السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [فصّلت / ٣٦] . فمرغوب النّفس والشّيطان فتح باب الجدل ، وإذا حصل الجدل سُكِّر باب الحضور مع الله . الشّيطان – عليه اللعنة – يريد أن تدخل في المجادلة معه وتنقطع عن الذكر ؛ فعليك أن لا تفتح هذا الباب ، وقل في نفسك : إنّي عبد مأمور بالذّكر ،

قال ربّي جلّ وعـــلا : { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ } [البقرة / ٥٢] ، فأنا أذكر الله وهو يراني ، والشّيطان يراني ولا أراه ، فلا يمكن أن أقاومه ، لذلك ألتجئ إلى الله الذي يراني ويراه .

١٠) التقوى تنـــزيه القلب عمّا سوى الله وتطهيرُه من الذنـــوب ، وهي غير الخشية ؛ لذلك قال الله تعالى : { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْـــشَ اللَّـــهَ وَيَتَّقْـــهِ فَأُولَئِـــكَ هُـــمُ الْفَـــائِزُونَ } [النور / ٥٢] . ذكرَ الطّاعة ثم الخشية ثمّ التقوى . لذلك حقيقة التقوى غير الطاعـــة وغـــير الخشية . وهي تنـــزيه القلب عن الذنوب ، وتعظيم أوامر الله واجتناب نواهيه . ومـــن كـــان مراقباً على قلبه ومحافظاً عليه ولم يخـــرب وجدانـــه – وذلك بتزكية نفسه – يقف على تلـــك النّفس الأمّارة بالسّوء ، وذلك برؤية مخالفتها وأنها لم تعبد الله حقّ العبادة . وكلّما ضعُفَتْ نفسُك ترقّيتَ ديناً ودنيا .

١١) كل إنسان ينسب الفضيلة والإحسان إلى نفسه ، والله جلّ وعلا قال : { فَلاَ تُزَكُّـــوا أَنْفُسَكُمْ هُو أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى } [النّجم / ٣٢] ، وعلى هذا فالاعتراف بالنقصان كمال ، كما أن الاعتراف بالفضل نقصان . قال الله تعالى : { وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [التوبة / ١٠٢] . فلا بدّ للمرء العاقل أن يفتّش عن عيوبه ويعترف بنقصانه ويعترف بعدم تقواه ، وعلى المؤمن مهما عَبَد الله أن لا يرى هذا العمل لائقاً لرضا الله ، لأنّه يطّلع على أن عمله ناقص ، وكلّ شيء ناقص لا يليـــق بربّه جلّ وعلا .

١٢) قال الله تعالى :{ فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ . . . } [التوبة / ٥] . القتل قتلان : قتل نفوس المشركين بالسيوف الظّاهرة ، وقتل النفوس الأمّارة بالسيوف الباطنة ؛ وقتلها قطعها عن هواها . سُئل سيّدنا الحسين بن علي رضي الله عنه : أيُّ الجهاد أكبر ؟ قال : الجهاد مع النفس .

١٣) قال الله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا . . . } [يونس / ٧] . عندما جئنا إلى الدّنيا ابتدأنا بالقسم الفاني من حياتنا ، فإذا متنا نبتدئ بالقسم الباقي منها . وسبب عدم طلب الوصول إلى الله تعالى هو الرّضا بهذه الحياة الدّنيا من الأكل والشّرب والتّجارة والجماع وغير ذلك . والذين مالوا إلى هذه الدّنيا الفانية وركنوا إليها هم الذين غفلوا عن التفكّر في السّماوات والأرض والليل والنّهار وغيرها من الآيات الكونيّة الدّالة على الله تعالى .

١٤) محبّة الدّنيا من أشد عوائق المريد في سيره إلى الله تعالى . فمن علامة استفادة المريد وتقدّمه احتقارُ الدّنيا ، وبالمقابل تحصل له محبّة الدّين ؛ فلا يجتمع حبّ الدّنيا والدّين معاً ، وبذلك :

١ً ــ يسقط من عيون النّاس .

٢ً ــ يتخلّص من حبّ الدّنيا .

٣ً ــ يتذوّق حلاوة الطّاعة وينشرح صدره بها ؛ حينذاك روحه تتشوّق إلى العالم الأعلى وتعرج ؛ كما يتشوّق الإنسان إلى الطعام أثناء الجوع . وإذا لم يشعر المريد بهذه العلامات فعليه تسليم نفسه للمرشد .

١٥) النّاس عندما يقومون بالعبادات أو يتحرّكون في الكـــون على قسمين :

القسم الأوّل : عندما يفعل ذلك يقول : ماذا يقول النّاس عنّي ؟ هذا مخالف .

القسم الثاني : عندما يعمل يقول : ماذا يريد ربّي منّي ؟ ويكون ميزانه الشّرع الشّريف .

فالأوّل مراقبته للخلق ، والثاني مراقبته للخالق .

١٦) قال الله تعـــالى : { يَـــا أَيُّهَـــا الَّـــذِينَ آمَنُـــوا لاَ تَتَّبِعُـــوا خُطُـــوَاتِ الشَّـــيْطَانِ } [النور / ٢١] . خطوات الشّيطان هي الكبر والغرور والعجب والنّظر إلى النساء وغير ذلـــك من المعاصي . وكلّ المعاصي فعلها من فعل الشيطان . ومَن أحبّ شخصاً فعل فعله .

فأنت تدّعي عدم محبّة الشيطان وتفعل فعله ؛ هذا لا يكون . فعليك أن تـــبغض الشّـــيطان بالفعل ولا تكونَ عوناً لنفسك مع شيطانك وذلك في الاسترسال معها في المخالفات .

١٧) النّاس ثلاثة أصناف :

أ ـــ صنف مقطوع له بحسن الخاتمة كالأنبياء والعشرة المبشّـــرين بالجنّة .

ب ـــ صنف مقطوع لـــه بسوء الخاتمة مثل أبي جهل وفرعون وهامان وقارون . . . الخ .

ج ـــ صنف مشكوك بخاتمتهم كعامّة المسلمين ، وأمرُهم مفوّض إلى الله .

١٨) كلُّنا نقول عن أنفسنا : (الفقير) ، ولكن إذا تحقق العبد بالفقر يكون حاله دالاً عليه ، أي على فقره وليس الأمر بالقول .

لذا : الوعظ بالحال أفضل وأنفع من الوعظ بالقال . وكلّ مَن ابتلي بالكلام مع النّاس لا يخلو من نفاق ورياء وشرك خفي ، لأن خوف المذمّةِ من الخلق وحبّ الثناء منهم هو عين الرّياء وعين حبّ الدّنيا . لذلك قالوا : مَن عمل بالوفاق لا يأمن من النّفاق .

١٩) الحضور مع الله للسالكين واجب ، وللأولياء فرض ، أمّا عوام المسلمين فالغفلة هي المسيطرة عليهم وتكون سبباً للمعاصي ؛ لذلك : مفتاحُ جهنّم الغفلةُ ، ومفتاحُ الجنّة الذّكرُ والحضورُ مع الله تعالى . واسمع قول الله تعالى : { وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا } [الكهف / ٢٨] .

٢٠) الأخذ بالأسباب دعاء فعليٌّ ، والعمل بقدر الحاجة واجب ، أمّا جمع المال والاستكثار منه فهو فتوى لا تقوى ؛ لأنّه يُخْشَى معه الوقوع تحت قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [المنافقون / ٩] .

٢١) إنّ أصحاب الرّياضات والمجاهدات كلّما أمعنوا في قهر القوى البدنيّة وتجويع النّفس قويَتْ قواهم الرّوحيّة وأشرقت أسرارهم بالمعارف الإلهيّة ، وكلّما أمعن الإنسان في الأكل والشّرب وقضاء الشّهوة الجسديّة صار كالبهيمة ، وبقي محروماً من آثار الفكر والعقل والمعرفة .

٢٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ليدعو الناس إلى الله لا إلى نفسه . قال الله تعالى : { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ } [النحل / ١٢٥] . فمَن يدعو النّاس إلى نفسه فهو مبتدع ، لأنّه يفعل فعلاً ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢٣) معرفة أولياء الله عند النّاس أصعب من معرفة الله ، لأن الله تدلّ عليه كلّ المخلوقات ، حيث يُعرف ربُّنا بوجودنا ووجود السّماوات والأرض ، أمّا أولياء الله فمعرفتهم مخفيّة صعبة على النّاس .

٢٤) إذا تنوّرت القلوب لا يأتي إليها إلاّ اللمّة الرّحمانيّة الموافقة للحقّ والحقيقة ، أمّا ما عدا ذلك فترفضه .

٢٥) س : هل يصح أن نقول : إننـــا نقدّم أرواحنا إلى الله ؟

ج : هذا لا يمكن . لأنّ أرواحنا مُلْكٌ لـــه ، فليس لنا منّة في ذلـــك . وكذلك المال والأولاد وباقي النّعم جميعها وكالات عندك ، ووكالتك في الأشياء لكي تستخدمها فيما خُلقت من أجله ؛ فإذا أخرجتَ نفسك ممّا بينك وبينها تتخلّص من العجب والكبرياء والرياء... الخ .

فمِنَ النّاس مَن يكون عبداً للمال ، ومنهم مَن يكون عبداً للكشوفات ، ومنهم مَن يكون عبداً للشهرة ، ومنهم . . . ومنهم ... ومنهم مَن يكـــون عبداً لله ، لا يتعلّق ســـرُّه إلاّ بـــالله ، لا بالعقبى ولا بالدّنيا . وإذا كان قلب العبد المؤمن خالياً من الدّنيا ولا يقع في سرِّه خطرات الكونين (العقبى والدّنيا) آنذاك يسع قلبُ المؤمن عظمةَ الله .

فإذا أردت أن تكون صاحب همّة عالية فعليك : أن تتعرّى بنفسك عن حبِّ الدّنيا ، وبروحك عن التّعلّق بالعقبى ، وبقلبك عن إرادتك بإرادة المولى ، وأن تجرّد سرَّك أن لا يلمح الكون ، بأن لا يخطر في سرِّك شيء منه .

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم

من

وصايا اعتكاف

عام ١٤١٦ هجري

بسم الله الرحمن الرحيم

١) الطّريق واحد (شاذليّة ــ نقشبنديّة . . .) ولكن طُرق الولاية متعدّدة . فمَن لا يتمسّك بنفسه يرى كلّ الطّرق حقّاً ، ولكن يحب طريقه أكثر . الهدف واحد وهو الله .

فكما أنّ التّعصّب في العروق أو المذاهب مخالف للشّريعة والطّريقة والحقيقة ، كذلك التّعصّب للطريق .

الذي لا يريد أن يكون هناك طريق غير طريقه فهو بخيل لا يحبّ أن يكون ورّاث رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرون .

ولكنّ الطّريقة الشّاذليّة لها ميزات ، أهمُّها :

١ً ــ الطّريقة الشّاذليّة طريقة علميّة عمليّة ، وعلومها قسمان :

أ ــ كسبي : وهو المعهود عند أهل العلم .

ب ــ لدنّي : وهو ثمرة التّقوى والإخلاص والصّدق . ومشايخ النقشبنديّة يُقرُّون بهذا ، ومنهم الشّيخ ضياء الدّين كُمُشْخانَوي الذي ذكر ذلك في كتابه (جوامع أصول طرق التصوّف) .

٢ً ــ اشتغالهم بالذّكر أكثر من الطّرق الأخرى :

في الطّرق الأخرى يوجّهون مريديهم إلى الذّكر ويتركوهم بحالهم ، ولكن في الطّريقة الشّاذليّة يوجّهون المريدين إلى الذّكر ويشدّون عليهم ويحرّضوهم حتّى يخرجوا من الطّبيعة البشرية .

٣ً ــ هذه الطّريقة ليست إرثيّة : بل شيخ الطّريقة الشّاذليّة يفتّش حتّى يجد واحداً لــه أهليّة ليكون خادم المؤمنين بإذن من الله ورسوله . وإذا لم يستقم يأخذ الإذن منه ، لأنّه أمانة . كمــا يحاول الصّائم تأمين طعامه قبل المغرب كذلك يحاول الشّيخ البحث عن خليفة له .

٤ً ــ إذا جاء الإذن لواحد يكتبون لــه الإجازة : وذلك بعد أن يتبيّن لهم صدق ذلك الذي جاء له الإذن واستقامته كذلك .

٥ً ــ دستور هذه الطّريقة المباركة الكتاب والسنّة والتّمسّك بهمــا .

٦ً ــ لا يطلبون الدّنيا ولا الآخرة بل يطلبون رضا الله واتّباع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا يعبدون خوفاً من نار ولا طلباً لِلذائذ الجنّة ، لأنّ جنّتهم في الدّنيا ، تلك هي جنّة العارفين . ولكن يطلبون الجنّة ليكونوا مع الذين أنعم الله عليهم مــن النّبــيين والصّــدّيقين والشّــهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقاً . هذه المعيّة مطلوبة ومرغوبة عندهم لأنّ هذا موافق لرضــا الله تعالى جلّ جلاله ، ومقيّد بطاعته واتّباع رسوله .

٧ً ــ لا يطلبون الكرامات : الكرامة الكبرى عندهم ــ رضي الله عنهم ــ الاستقامة علــى الشّريعة . لا ينكرون الكرامات بل يعتبــرونها من الحظوظ .